المحاضرة السادسة: السيّر الشعبيّة/ سيرة الأميرة ذات الهمّة.

يُقال بأنّ السيرة الشعبية هي ما يُصنّف ضمن أدب المغمورين، أو أدب العامّة، أو الأدب الحقير، أو أدب جمهور حاشد قليل، الذي يُعبّر عن مشاعر الشعب وأحاسيسه أفرادًا، وجماعات، وهو أصدق في الدلالة على نفسية الشعب من غيره، من الآثار، وقد سُمّيت بهذه التسميّة تمييزًا لها عن السيرة النبوية، والسيّر الذاتية..، وكثيرًا ما كانت تُتداول في المقاهي، والدكاكين، والفنادق، والأسواق بين الطبقات الوُسطى، التي نشأت نتيجة لتقدّم المدن ابتداءًا من القرن الخامس عشر ميلادي.

مفهوم السيرة الشعبية:

لغة: اتّخذت السيرة معاني لغويّة عديدة، من بينها: الطريقة، الضرب من السير، السنة، قد سارت، وسرتها فقد قد **خالد بن زهير: ° فلا تجزعنّ سنةً أنت سِرتها ooo فأول راضي سنة سيّرها °**

والمقصود من هذا البيت: لا تغضبنّ من تلك السُنّة أو الطريقة فأنتَ جعلتها سائرة بين الناس، ويُقال سار بهم سيرة حسنة، والتسيار بالفتح: تفعال من السير وسايره، أي جاراه، فتسايرا، والسيرة هي الهيئة، أو الحال التي يكون عليها الإنسان.

اصطلاحًا تُطلق كلمة سيرة على أعمال كثيرة تتفاوت من حيث لغتها التي تصل إلى العربية الفصيحة مرّة، وإلى العاميّة مرّات، وقد رُويت السيرة على ألسنة الناس منذ القدم، لتتّسع بعد ذلك بفعل الرواة، الذين حفلت رواياتهم بالقصص، والأعاجيب عن الأمم، والجماعات، وحتى الأفراد، وقد حفل، واهتّم بها الناس، فتغنوا بها، وحفظوها، وتمرّسوا في أدائها، وإلقائها، كما تفنّنوا في أساليب روايتها، وترديدها، لتتحوّل بذلك من مجرّد قصص عجيب إلى موضوع ضخم، ينطوي على مادة تاريخية، وخيال رحب، مثّل لنا صورة البطولة، وخوارق الأعمال، كما صوّر لنا أخلاق العروبة، ومحامد الخصال.

فالسيرة الشعبية، تُقدّم صورة للنفس الأصيلة في شجاعتها، وإيثارها، وفي عزّتها، وفي عزمها، وإبائها، وفي وجودها، وطموحها، تسعى من خلال نصوصها القابلة للتوالد عبر عملية القصّ الملّمة بالعِبر إلى تربية النشء تربية صحيحة؛ إذ حاول القاصّ الشعبي أن يرسم النموذج عبر بطل أو عدّة أبطال، استقاهم من التاريخ أو أشعارهم بكلّ تفاصيلهم الحياتية، وأضاف إليها من خياله الواسع حوادث سهّلت له عملية التعبير المطلق عمّا يجيش في

نفسه من صراعات، وآمال، وتطلّعات، وأحلام ليست في الحقيقة إلاّ تعبيرًا صادقًا، ومرآة عاكسة لهموم الشعب العربي، وآماله.

خصائصها: السيرة الشعبية هي قصّة قبيلة، أو عشيرة، موضوعها الجوهري الحروب، والأحداث المهمّة من حصار، هجرة، خوارق، بطولات، فروسية،لغتها عادةً ما تكون روائيّة تتحكم فيها ضوابط السرد القصصي/ الحكي، أو الروائي النثري دون أن تخلو من الشعر، وإنشاده، وهذه القصّة يُشترط فيها أن تكون شخصيتها ممّا أقرّ التاريخ وجودها، وعرفت به الكتب التاريخية مثل سيرة عنترة بن شدّاد، سيرة بن هلال، سيرة الأميرة ذات الهمّة، إلاّ أنّها تتجاوز التاريخ الواقعي إلى الخيال الشعبي.

إضافةً إلى ذلك نجد أيضًا :

° وجود المضمون الاجتماعي العام وراء كلّ عمل على حدة، فكلّ سيرة شعبية وُجدت للدفاع عن قضية هامّة من القضايا العادلة للشعب العربي في ظرف من ظروف حياته.

° وجود المضمون الفنّي أوالقضية الانسانية العامّة وراء كلّ موضوع.

° ترابط العمل من الأول إلى الآخر.

° وضوح الشخصيات الرئيسية، والفرعية بحيث تُمثّل كل منها موقعًا مُحدّدًا، أو بحيث يخدم هذا التحديد العمل من ناحية الموضوع، ومن ناحية المضمون.

سيرة الأميرة ذات الهّمة تُمثّل السيرة الشعبية الوُجدان العربي خير تمثيل، وتُجسّد مُختلف القيّم القومية، والبطولية التي يحتاج إليها العربي في صراعه مع الآخر، كما أنّه لا يفهم حقيقة الشعب، ومكوناته دون فهمنا لأهميّة هذه السير، ومن بين السيّر العربية الراسخة في الذاكرة الشعبية سيرة **الأميرة ذات الهمّة**، والتي قام الكاتب **شوقي عبد الحكيم** بنقلها، وتحقيقها، ووضعها في نصٍّ مطبوع يتسنى لنا الاطلاّع أنّا شئنا دونما الخوف من عامل الموت، والزمن، وتُعتبر هذه السيرة العربية الأطول في التاريخ، حيث تتوفر في مخطوط محفوظ بالمتحف البريطاني، في حجم كبير جدًا يبلغ 23 ألف صفحة، حيث تقوم أحداثها على الحروب التي قامت بين العرب المسلمين، والتحالف البيزنطي، أو بما يُسمّى في هذه السيرة بالتحالف الرومي من الجانب المقابل، حربٌ دامت لأكثر من أربعة قرون، إضافةً إلى ذلك فأحداثها أيضًا تجري حول حقبة مطلع الإسلام، وبدايات انتشاره، وتُبيّن سيرة الأميرة ذات الهمّة

التفكير الجديد، ونظرته إلى المرأة، في ظلّ الإسلام الذي منح للمرأة مكانة مُتميّزة مُغيّرةً النظرة النمطية المتعارف عليها سابقًا، جاعلةً من امرأة فلسطينية حجازية، بصفة أميرة، امرأة أسطورية بقيت عالقة في الذاكرة الشعبية لقرون طوال، إمرأة مجاهدة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى سعت جاهدة إلى قهر المقولة بأنّ سيادة الجيش، والقيام بالفتوحات حكرٌ على الرجل دون غيره من باقي بنيه من البشر، فقد قادت الجيوش، فاتحةً مدينة القسطنطينية، قاهرةً الجيوش الجرّارة، وقد وُلدت هذه الأميرة بمنطقة الحجاز في أواخر عهد الدولة الأمويّة، لرجل/ أب لاتزال تتحكّم فيه الترسبات القبلية، والنظرة الدونية للأنثى، والذي ما إن يُبشّر بجنس المولود الذي رُزِق به أنثًى تراه كظيمًا حزين الوجه، يأبى أن تكون له ابنة، كيف وهو بالأمير الحاكم، الذي يتضاعف حزنه، وحرصه على أن يُزرق بمولود ذكر، ينتظر منه أن يصبح يومًا ما السند، والوارث للحكم، والفاتح، والحافظ للسلالة الأميرية من الزوال، والاندثار، هذا الحزن جعله يقوم بإرسال المولودة إلى بوادي الحجاز لتتولى حاضنتها "رباب" مهمة تربيتها، ورعايتها، مع وليد لها، حيث ترعرعت الطفلة فاطمة، وشبّت في الجبال الخشنة، وتتعلّق بها، أيّما تعلّق، وبكلّ ما له علاقة بهذه الحياة الوعرة، وركوب الخيل، ومجابهة المخاطر، والصِعاب، لتُحيي بذلك أمجاد جدّها "الصحصاح" المجاهد المغوار، الذي أفنى حياته في الحروب، والجهاد، والرغبة في فتح القُسطنيطية، وسبر أغوار بلاد الروم، ذلك الرجل الذي لم يورثها رغبته في الفتح، وإنّما ورثّها أيضًا، مجلّدات عن بلاد الروم، وعن عادات سكّانها، من جدّ، وهزل، وهرج، ومرج، ولغتهم، وعن طريقة ركوب البحر، وعن أسلحتهم، وكيفية استعدادتهم العسكرية، ومختلف تحرّكاتهم، إلاّ أنّ هذه الطفلة لم تمكث طويلاً في البادية، فقد أُغير عليهم، وأُسرت، إلاّ أنّها نجحت في الفرار منهم آسريها، وقد كانت الصحراء وجهةً لها، لتجمع من الرجال ما يكفي لتكوين جيش قويّ كانت هي قائدته، غارت به على القبائل، حتى علمت بأصلها، ومكان أهلها، لتعود إليهم بعد بلغت شهرتها الآفاق، فسبقتها شُهرتها في الوصول إليهم قبلها، قائدةٌ امرأة مُحنّكة، قويّة، صائبة القررات، داهيّة في القتال، غيورة على حال المسلمين، وما آلت إليه حالهم، من فرقة، وتناحر داخلي، فقد كانت دائمة التدريب، والسعي الحثيث في تعزيز قِواها، ومهاراتها، والنهل من إرث جدّها العظيم، أمّا بالنسبة للجانب العاطفي فقد نال حبّها من كلّ من عرفها، وسمع بها، وازداد شغفهم، وولعهم بها، وقد كان من بين هؤلاء ابن عمٍ لها، الذي كان شديد الإصرار في الرغبة بالارتباط بها، وطلبها إلى الزواج، وبينما كان هو شديد الإصرار بطلبه، كانت هي الأخرى شديدة الإصرار في رفض طلبه مثله، مثل غيره من باقي أقرانه، مُكتفيّة بالتفرّغ إلى الجانب القتالي، وتربية النشء الصاعد، وتعليمه مختلف فنون القتال، والحرب، والدفاع، لتُكوّن بذلك جيشًا أشدّ قوّة من الجيش الذي أسّسته في أوائل شبابها، جيشٌ درّبته لغرض مهم جدًا هو اقتحام جبهة الروم، إلاّ أنّها لم تنل ما تريد نتيجة لضغوط ابن عمّها، والوساطات

التي حالت بينها، وبين رغبتها، جاعلةً إياها تقبل عرض الزواج منه مُكرهةً، إلاّ أنّها لم تستمر في ذلك فقد فرّت مرّة أخرى من أسر الزواج، والواجبات المنزلية إلى الصحراء، ولم تعد إلى قصر الخليفة إلاّ بعد ورود أخبار تحرّك الروم، نحو أراضي المسلمين وهجوم جنودهم عليه، ممّا أدّى بها إلى ضرورة العودة إلى مجلس الخليفة لإثراءه بالعدّة، والعتاد، والخطط العسكرية حتى يتسنّى للمسلمين ردّ الأذى الرومي عنهم، لتكون الأميرة فاطمة "ذات الهمّة" الساعد الأيمن في هذه المعركة للأمير عبد الله أمير الجيش المتجّه لجبهة القتال، هذا بالنسبة إلى الجانب العسكري، أمّا بالنسبة إلى الجانب الأنثوي، وزوجها ، وابن عمّا الحارث فقد كان غاضبًا منها غضبًا شديدًا، وقد سعى جاهدًا إلى الانتقام منها، بكلّ الطرق، والدسائس، إلاّ أنّ احتياطات الأميرة "ذات الهمّة" قد حالت إزّاء تحقيق ذلك فترة من الزمن إلى أن توّصل إلى خادمها الأمين "مرزوق" ابن مربيّتها رباب، صاحب القلب الطيّب الذي خدعه الحارث بتوسّلاته، وجعله يضع لها قطرات من المخدّر الذي أوهمه بأنّه مجرّد منوم، يجعلها تنام لترتاح حتى يتسنى لزوجها لقاءها، والتواصل معها، إلاّ أنّ ذلك الأميرة المغدورة ما إن شربت الشراب الذي وضع فيه مرزوق بضع قطرات من الدواء المنوّم، إلاّ وقد خارت قِواها، ونامت، ليصل إليها زوجها المخادع، وفعل فعلته بها، وهي لم تستفق لكلّ ما جرى لها، وبعد قضاءه لمآربه فرّ، تاركًا إياها في فراشها، وفي الصباح عند تأخرها عن موعد استيقاظها المعتاد، دخلت وصيفتها، ومربيّتها رباب إلى مخدعها لتجد الأميرة، وقد حلّ بها ما حلّ، وبهذا قهر الرجل المرأة الرمز بالخديعة، والخيانة ممّن هم أقرب إليها، امرأة لم تقهرها لا جيوش الأرض، ولا الأمراء، طالتها أيدي الغدر من الأهل، والأقارب.

وبعدما قضى الحارث مأربه من ابنة عمّه فرّ هاربًا، هو ومساعدها مرزوق، ليخبر والده بما فعل، فاشلاً في إقناعه بأنّ الأمر الذي قام به هو حقٌ شرعيٌ له، إلاّ أنّ الوالد كان يُدرك جيّدًا بأنّ ما فعله ابنه لن يمرّ مرور الكرام وأنّه مجلبة لحرب مبيدة للجميع، ممّا جعله يرحل، وقبيلته مُستنجدًا بأمير الجيوش ليتدخّل في القضية قبل أن تنحر نيران الحرب، والحقد على أبناء العمومة، إلاّ أنّ الأميرة المغدور بها قد ظلّت طريحة الفراش لأشهر، تعاف كلّ شيء حتى بدأت بوادر الحمل تظهر عليها، لتدرك بحقيقة حالها، ماجعلها تحاول جاهدةً إلى التخلّص من هذا الحمل الذي سيعيقها عن أداء مهامها، وهي تُدرك تمام الإدراك ما يقوم به الأعداء ضدّها، وضدّ جنودها، إلاّ انّ الحمل ثبت، وأنجبت وليدها "عبد الوهاب" ذا البشرة السمراء، الذي رفضته، ورفضت أمومتها له لتُسلّمه بعد ذلك إلى مربيّة في البريّة تتولى مهمة تربيته، فلا تصل إليه يد والده الحارث، ولا يذيع أمره، ويُفتضح سرّها، ويُصبح هذا الولد الذي كان في أول الأمر بالنسبة إليها مُعيقًا لها لتحقيقها لحلمها، وحلم جدّها، والذي أصبح مُعينًا لها بعد إصراره على البقاء معها، والمحاربة جنبًا إلى جنبٍ، وعدم العودة إلى منفاه، وبقي يتعلّم أمور الحرب، والخديعة،

والقتال بجانب أمّه التي ربّت بجانبه فتًى آخر أطلقت عليه اسم "البطّال"، والذي كان له دور بارز في حربهم ضدّ الروم، وبقي ابنها "عبد الوهاب" يحارب ساعيًا إلى تحقيق مراد أمّه، وجدها بعدما توفيت الأميرة "ذات الهمّ" إلى أن حققّ، كل ما كانت تصبو إليه هذه العائلة أمًا عن جد، وإعادة القُسطنيطينية بعد رحلة مضنية من الحرب، والمقاومة، والخديعة التي تعرّضت لها من الداخل، والخارج، وقد ساعدهم في لك البطل "البطّل".

نصّ التطبيق: المطلوب منكم:

- ما المغزى العّام لهذا النّص؟
- ما طبيعة هذا النّص؟ أذكرها مع الشرح، التعليل.
- ما العبرة التي يُمكن استخلاصها من هذا النّص؟
- ما الغاية من إعادة إحياء النصوص الشعبية؟